

تطور شخصية البطل الثوري في روايات عبد الرحمن الربيعي

يضي . وكنت أخل انظار الآخرين تتاملني اعجابا . ولكنني عندما
اختليت لنفسي في تلك الزنزانة الفدرة ضحكت . أحسا اما مهم
الى هذا الحد ؟» (٥)

وتصور هذه الفضة الطويلة او الرواية القصيرة من خلال الحوار
والمونولوج الداخلي لتبطل تطوره الثوري وتاريخه بين الاصرار والكفاح
والياس والانهار والاحباط . فنحن نراه في البداية في اعقاب نفيه
مهترا مقهورا ، ان حياته كلها في ازمة الاحباط وكل شيء قبض الريح ،
وعنما يشد صديقه من أزره ويشيد بمواهبه يسقط في هوة رهيبه
ناتجة من تكرار معاناة الارهاب والاعتقال بينما المدينة لا مبالية بل
انه يراها مقبورة مثله . فكر بانه يرسم ولكن ليس بالاجساد
المنشود « . . رسومي ميتة لا تنبض ، ليس فيها ذلك الدفق الذي
اريد . اريد عمقا ، اريد ان انفذ الى القرار ، لكنني لن أطيع ، وان
بقيت على هذه الحال سأحطم فرشاتي وارميها في الفرات .» (٦) ان
البطل هنا محبط ولكنه ليس عاجزا ، انه بطل يتشكل ويبحث عن
طريقه ، وبهذا البحث عن الطريق الصحيح يبدأ البطل الثوري بالتطور
والتعلم في روايات الربيعي . ففي هذه الرواية القصيرة « عيون في
الحلم » ترى « سالم » يتقلب بين الرجاء والياس ، بين الانتماء
والضياع ، بين الجنود واللاجدوى والعبث . وسنرى كيف صور
الربيعي في روايته الاولى تردد بطله الثوري وتاريخه ، ثم تتابع
رحلة البطل الثوري في روايتيه التاليتين « الوشم » و « الانهار » .
فاذا رأيناه يرفض رسومه فانه رفض الساعي من أجل الافضل
والاعمق ، رفض المستمر اذ هو يرسم بكثرة . ولكنه يطلق صيحة اليمة ،
بينما هو مخمور في قبضة القهر والياس وبمد ليلة مؤرقة مع عشيقته
التي نغرت من رائحته المخمورة (٧) ، « ليلي . اني غريق » (٨) .

(٥) عيون في الحلم ، ص ٧٧ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٧) يلعب الخمر دورا كبيرا في قصص الربيعي ورواياته ، وقد
ذكرت هذا في لقاء بغداد ضم الفنان عبدالرحمن الربيعي والناقد
العراقي محمد الجزائري وكاتب هذه السطور ، واكمل الجزائري مؤكدا
بان كل أبطاله مخمورون . ويوسعنا ان نكتب الصفحات الكثيرة
حول هذه الظاهرة اذ لا شك ان هذا كله ليس بعيدا عن واقع الحياة
في العراق الذي يؤدي فيه الخمر دورا اجتماعيا نشيطا . انظر مثلا
الحوار الطويل في قصتنا هذه حول الخمر بين زملاء يتقاطونها
وواحد يرفضها ص ٩٦ .

(٨) المصدر السابق ص ٨٢ .

عبدالرحمن محمد الربيعي ، قصاص وروائي عراقي (١) ، تمسح
كتاباته عن تطور الثورة العراقية وتاريخه وتجاربه الفدح الوطني والثوري
وتزخر بزخم الحياة العربية في العراق وتاريخه القومي والاسطوري ،
وذلك من خلال رصد التطور في شخصية البطل الثوري . فتصورا حدث
قصصه القصيرة « مملكة الجد » (٢) كيف تشهد الثورة عزيمة رجل
من صميم الشعب وتمده ذكريات مشاركته المفوية في صفوف الثورة
الوطنية ، ضد الانجليز خلال احتلالهم للعراق ، بمعين لا ينضب للنضال
والمقاومة الانسانية طوال حياته . وفي هذه القصة ، المكتوبة بروح
الرواية ، يمزج الربيعي التاريخ الثوري العراقي ابتداء من ثورة
العصبي واستشهاده ومرورا بثورة العشرين وثورات العراق الاخرى ،
حيث يظهر بجلالة الحس التاريخي والاسطوري والقومي والوطني
والثوري ، اذ تمثل كلها ابعادا نيرة لادب الربيعي .

في روايته القصيرة « عيون في الحلم » (٣) (٧٠ صفحة قطع
متوسط) ، يصور الربيعي تجربة الثوري ضد الحكم الملكي في
العراق . وبطلها سالم رسام (٤) وثوري محترف عانى مرارة الاعتقالات
المكررة ونفى من مدينته الى قرية بعيدة نائية يلخص البطل الثوري
ازمته قائلا : « عندما اعتقلت اول مرة تصورت نفسي بطلا ،
والعراق كله يهتف بحياتي ، أخذت أمشي مرفوع الرأس والاصفاد في

(١) اصدر عبدالرحمن الربيعي خمس مجموعات قصصية وروائيتين .
المجموعات القصصية هي « السيف والسيف » (١٩٦٦) ، « الظل في
الراس » (١٩٦٨) ، « وجوه من رحلة النعب » (١٩٦٩) ، « المواسم
الاخرى » (١٩٧٠) ، « عيون في الحلم » (١٩٧٤) ، وتصدر فريسا
سادس مجموعاته القصصية بعنوان « ذاكرة المدينة » .

(٢) مجلة « بيروت المساء » اللبنانية ، عدد ١٥ - ٢١ ابريل
(نيسان) ١٩٧٥ ، ولكن تاريخ كتابة القصة يرجع الى عام ١٩٧٤
كتاريخ الكاتب .

(٣) كتبت سنة ١٩٧٠ ونشرت لأول مرة بمجلة الافلام العراقية
العدد التاسع عام ١٩٧٢ ، ثم كونت مع خمس قصص قصيرة المجموعة
القصصية الخامسة للربيعي ومنحتها عنوانها ايضا . صدرت مجموعة
« عيون في الحلم » عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام ١٩٧٤ .
والتي تعود المنتظفات والاشارات .

(٤) يلاحظ ان تخرج الربيعي من كلية الفنون ونيه لاجازتين
اكاديميتين فيها ، يجعل من ابطاله فنانين تشكيليين ، فمن هذا
الوسط الفني ، الذي فارقه الفنان الى فن القصة والرواية ، يختار
الربيعي شخصياته .

يسافر « سالم » ، البطل الثوري ، الى معناه ، وقد اعتراه اليأس والعبث ولكن حسه الثوري لا يلبث أن يستيقظ عندما يذهب الى القرية الثانية فيجد المدرسة مكونة من اكواخ رطبة يحتر فيها الطلبة حفاة بؤساء . فكر « المساة تلاحقني . هذه الوجوه الكالحة يجب ان تظلي بالخير والنعمة .. » (٩) ويستخدم الكاتب اسلوبين فنيين ، المونولوج الداخلي والحوار ، للتمييز عن تحرك الحس الثوري لدى سالم بطل القصة المثني ، فهوولوجه الداخلي يفضح نوازحه الداخلية وهله وتوره وتاريخه ، ولكنه في حوار مع الطلبة يصرح فيهم بثورية ووعي . يقول مونولوجه الداخلي : « نهمني ايها التلال الرخوة . اقل فمك . دولتنا حرة . مليكنا ما زال شابا .. مليكنا تفديك بالارواح .. نف .. تعالوا لتروا وتكلموا بعد ذلك . طغي شرافتك ايها الديدان .. لن تمتصي دما جديدا .. سنملا اجوافنا بالخزي والرصاص .. وسيرنفع نشيد العراق .. العراق .. العراق .. انتم لا تدركون شيئا ايها المساكين .. يا ضمام الارض .. يا حيوانات الارض .. لست نبيا جادكم برسالة .. انا مزيج اقنعة .. كل شيء كان موجودا قبل مجيئي .. وسيظل . ولكنكم لم تروه .. اوصدوا عيونكم بالجهل والفاء .. لا تتعلموا السى بهذا الاستغراب .. ان عيونكم بدين فلكي وبطري .. آه .. لا اجد النصح ! ! » اما في الحوار فانه يحض تلاميذه على رفض واقعهم اللاامي السيء والتطلع الى مستقبل افضل : « ان حياتكم الفاسية يجب ان تكون افضل ولا شيء يجعلها هكذا الا التعلم ، انه طريقكم الوحيد والا بقيتم في هذا التخبط معيدين نفس حياة الذل التي عاشها آباؤكم وأجدادكم .. انتم لا تختلفون اليوم عن حيوانات الحقل بشيء .. ان لم تدركوا هذا اليوم فستدركونه غدا .. اسمعتم ما اقول ؟ » (١٠) .

هذا جزء من التطور الذي لحق بشخصية سالم البطل الثوري في مفاه بين الفلاحين البؤساء وابنائهم الحفاة المتطلعين الى غد افضل ، اما هي بقية الاجزاء ، فقد اطلق لحيته وترك نفسه على سجيته وتخلص من عادات المدينة البورجوازية واخذ يفوض في واقع الحياة العراقية البائسة في ظل الملكية المستبدة العميلة للاستعمار البريطاني ، انه يتعامل مع الحياة ومع الناس ويتفاعل معهم . وفي رسالة السى صديقه يصور الفنان ازمة البطل الثوري بين رفضه لواقع الحياة المتخلفة ورفضه لنور البطل الثوري ويأسه من القيام بسور النفذ كما تتطلع اليه القرية باعتباره معلم المدرسة وصاحب اوقى وظائفها المدنية ، « ساحتك عن الركون والنشرد واحلام الرجال المقلوبين .. سايظل هنا .. لست منهارا .. لستني اطيع الحكم بالسخف على كل شيء .. ففاعات على الجرف نعدمها اوهى الرياح .. بتاملون وجهي كمنقذ .. لا املك حتى زمامي .. مجرد آلة تدار .. قلبي لك .. لبتك نرينني على هذه الحال اذن لهربت من حبيبيك المنبوذ .. مسا لهذه اللحظات .. متى دعى رأسي لحظة .. عواظني عاربه مندقسة كالينبوع .. اتوق للقيامها كما يتوق الزرع ليوم سقيه .. » (١١) .

وفي بؤس القرية وحياة اناسها البسطاء يتشكل الثوري ويكتسب خبرات جديدة ، يصير الثوري اسانا جديدا يفكر « صغتي يا رشيد ان اشياء اخرى اخذت تجرني الى ميدانها . يجب ان اجعل لحياتي معنى » (١٢) هكذا يتطور البطل الثوري في « عيون في الحلم » . واخذ يرصد واقع التخلف ماديا وفكريا ووجد في الجريمة اسلوبا خاطئا للرفض الفردي . ووجد في ذلك الواقع البائس من الالم والاسى ما

يفوق الهوى المنشورات الثورية ، فالواقع حي يصرخ في اغنياته الريفية الحزينة المسحوقة « تته اشبه بالرخة الاخيرة لرجل يهوى من سطح عمارة . كل شيء خرب وحزين هنا . ماذا تثير ؟ اورافك ونشراك يانوري اشبه باللبنان في فم جائع ! » (١٣) انظر الى دقة التشبيه وغنى التعبير وكيف تطور الثوري من الكفاح الثوري بالمنشورات حتى كان يتوقع اعتقاله عقب كل حركة لتوزيع منشورات جديدة ، الى ان انتهى كفاح المنشورات والاعتقالات به الى النفي في قرية عراقية نائية ، وما هوذا يكتشف من جديد ضعف اسلوب الثورة بالمنشورات ازاء هذا الواقع الفاسد البائس ، واكتشف ان الكفاح الورقي بالمنشورات اشبه باللبنان في فم جاع . وامامنا في المشاركة الوافية والامتزاج بالواقع ومعاناته يصاب البطل بالبهارسيا كما يحدث لكل الفلاحين . وقد نجح الريبي في تصوير التارجح الطبيعي في شخصية البطل الثوري ، في قصته الطويلة « عيون في الحلم » ، بين ماضيه الثوري واضطهاده تارة ، وبين حبه لفنائه في المدينة تارة ثالثة . وهو خلال كل هذا يتقلب بين الامل واليأس والرجاء والاحباط واللاجدوى والثوق والعمل من اجل مستقبل افضل . فيقدم الريبي شخصية ثورية حية ، ليست نطفا ورفيا وليست احادية الجانب . وفي هذه الحيوية ينجح الريبي ايما نجاح في تصوير ازمة البطل الثوري . وتنساب افكار ومشاعر البطل من خلال المونولوج الداخلي وبيار التسعور فتري حياته كلها في صورة بانورامية للذباب والقهر ، اذ يفكر وهو جالس في حانة ، بفداد حيث سافر للقاء حبيته ، « غدا اعود الى مدينتي . بفداد تفزعني . نعم . نعم . لا تضحك . رايت كثيرا . خيرت الدنيا . عرفت التشرد والالم . عملت بيدي . كانتا خشتين مثل الارض . اصابني التسرف . لا . هذه اشياء وفتنة . سالم عباس لن يخون . بلا الهنم نعم . طيبون بسداجة . ابي لم يجلس وراء مكتب فخم ولا جني . نعم لا يعرفون غير القرآن . لن يفسدنا احد . لا نعرف الخند ، لا نصب الشرك . نثار . نصب حتى الموت . لن نتراجع عن قول . كلمتنا واحدة اشداء . نرعب اعدائنا . لا تضحك . انتهى الربع سريعا . هات نصف ربع آخر . احب فيلتي وامي ورشيد ونوري ، امي رانعة . عظيمة تلك القروية السمراء . لم تيك مثل الامهات . تزغرد كلما سجنوني . السجن للرجال هكذا تردد .. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . هاها التليفزيون . قرفوز . الله والملك والوطن هكذا علمونا منذ صبانا . كفرنا بهم . سننفخ على هذا الملك . نعم عرفت السجن . ضربوني ففقدت وعيي . تركوني بلا مساء . شمووني . بصقوا في وجهي . علموني الخند . المفو عند القدرة . لا انني لا اهذي . مليكهم . ابن الانكليز . عار آه يا صديقي كنت مترددا دوما » (١٤) . وينتهي تردد البطل الثوري بعودته الى تلاميذه الفلاحين يلقتهم اناشيد النضال ، مواصلا طريقه الثوري ، بينما يهاجم الحرس مدرسته النائية بقرية صغيرة بائسة لا وجود لها على الخريطة ، فيعنفل كسالف عهده . وبهذا تنتهي تجربة القاق والنوار لبطل الثوري في ظل حكم الملكية والاستعمار كما صورها الريبي في روايته القصيرة « عيون في الحلم » باصراره على المضي في طريق النضال الثوري . وسنرى تطور شخصية البطل الثوري بعد قيام ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ في العراق وما صاحبها من احداث وانتكاسات ماثلة في رواية الريبي الثانية « الوشم » . ويذكر الناقد العراقي محمد الجزائري في دراسة له لرواية « الوشم » (١٥) ، بانها الجزء الثالث من ثلاثية صدر الجزء

(١٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣ و ١٢٤ .

(١٥) الجزائري ، محمد ، « الوشم » رواية السقوط السياسي

والاحباط ، مجلة « الآداب » اللبنانية ، عدد نوفمبر ١٩٧٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٨٧ .

(١٠) المصدر السابق ص ٨٨ و ٨٩ .

(١١) المصدر السابق ص ٩٢ .

(١٢) المصدر السابق ص ١٠٠ .

الاول منها بعنوان « عيون في انحلم » ، فاذا صح هذا فانها بعد تلايه افكار تشير الى تطور شخصية البطل الثوري المصاحبة لتطورات الثورة في العراق وليست تلبية شخصيات او اجيال . لان الشخصيات مختلفة في الروايات الثلاث بل انها تتطور خلال جيل واحد .

كريم الناصري ، بطل رواية الربيعي الثانية « الوشم » بطل بلا بطولية ، قال لخصفه وهو يتسدد الخلاص من الحبيبة الثورية « اسم ابحت عن بطولات دونكيسوتية يوما ! » (١٦) بطل مأساوي متعف من أبناء الفقراء، جرب الخلاص بالسياسة ففشل فجرب الخلاص بالحب . ورواية « الوشم » ذات البناء الفني الحكيم والازمنة المتداخلة دون هواصل ، ليست الا تشريحا داخل شخصية هذا البطل الثوري الهزوي، فتتبار الوعي ينير احداث البطولة الماضية وكيف انتهت به الى الاحباط واليأس والاعتراف وانخيار ، وذلك نهاية محاولة الزمن الماضي للخلاص بالثورة . اما الزمن الحاضر فيجسد لنا محاولة البطل الخلاص بالحب بعد ان يكشف انه وزملاءه ليسوا ابطلا ولكنهم ضعفاء منغوبون ينهارون عند اول مواجهة لهم مع جلاذيتهم . ويجسد الرواية مدى الاحباط الذي اصاب كريم الناصري من جراء وهووعه في عالم الفهر ، وتؤرخ لتجربة الثوري العراقي في مرحلة اخرى من مراحل الثورة العراقية بعد فيسالم ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨) والاحاطه بالحكم الملكي والتبعية للاستعمار . وهي فترة تاريخية معروفة شهدت الانتصارات والانكاسات ثم الارهاب الفضيح . ويؤيد ثابتان عراقيان فراء الرواية وكنا عنها بأنها ترجمة حقيقية عاشها الثوري العراقي . قال عزيز اسيد جاسم : « الوشم هي قصتنا جميعا ، كتبها الربيعي في حين لم يكتب عن انظافنا احد سواه » (١٧) . وكتب محمد الجزائري : « ان نكون او لا نكون امام حد المفصلة ، امام الصنف والتعذيب واجهاض كل ادمية الانسان او الانسانية الكائن .. ذلك هو السؤال الذي واجه الشباب من ادياء العراق - بخاصة - بعد نكسة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. صحيح ان عبدالرحمن الربيعي حافظ على صدق الوقائع الى حد كبير .. » (١٨) .

كريم الناصري بطل ثوري متمم وملتمزم اغتفل لمدة سبعة اشهر في اسطبل قديم للخيل ، وفي المعتقل اكتشف غريبه وضعفه واخذت ذكرياته الثورية تنثال على عقله وعلى صلابته فتفتنتهما ، ازاء ما رآه في المعتقل من انهيار زملائه ونهاويهم ، تهاوى النموذج البطولي للثوري ذلك الصلب الذي يفترض فيه ان يؤثر في الاحداث ويعرف كيف يتعامل معها « اشياء كثيرة مرت بي وانتهت عاجلة ، ورغم مرور السنين والاحداث بقي جوحي واقفا لاهامة علاقتادمية مع الاشياء ، علانة نوي العظام وتهرس الاعصاب كلها . في السياسة اردت ذلك ولكن نسانتهم اللذيل امامي جعلني ابصق كبرياء ، واحتقر لعظاني التي عشناها معهم باندهاع اصيل . جسدي ممد الان في هذا المعتقل المحتشد مع هؤلاء الرجال الذين لا يتجانسون مطلقا في ثورتهم وشجاراتهم اليومية التافهة ، ولست ادري كيف انصوا تحت باقطة سياسية واحدا» (١٩) كريم الناصري مثقف ابن لصلاح فقير نشأ موقف الرفض لبدنه من استيقاظ وعيه الطبقي لدى مشاهدته لوقائع الفقر والبؤس « ان جهد والذي كان

لا يساوي ربع دينار في اليوم ، يحترت اأرض وينشق الترع ويحرس سي الليل ، ويردد ويجوع ويمرض ، وان اسطمت ان اكون موطعا دا دخل لا ياس به وانهم يرفاه مادي فهذا من يعديني عن اسمني تسمية جامعة اكلها جفاف الارض قيل ان حصص ما بدره : « (٢٠) تلك كانت بداية الانماء وكانت انهيته في المعتقل ، وفيما بين البداية والنهاية اكتشف كريم الناصري المنورد الثوري ، انه منورد على كل شيء ورافض لكل شيء ، واهم ما رفضه السعرات والتعويله والرؤية الحزبية الضيقة، لقد كنت اعاني وابحت دائما ، افرا الكتب ، واساهم في المظاهرات والتنظيمات ، واشرب الخمر واحب وارتاب دور الزنا بلا انقطاع ، اردت ان اكون على صلة ساحه بالحياه واجدد معها ، ولكنني اكتشفت انني كنت أخسر هذه انعيه باستمرار ! » (٢١) لقد رضح كريم الناصري لاحساس عيتي بالاجلدي التمرد ، الرقص الكامل ، واللايمان ، واللابطولة ، اذ كان قد رفض كل شيء وايقن ان سعيه للبطولة انتهى به الى التناؤل والهزيمة والاحباط . كان كل ما يفكر فيه هو كيف ينهي من هذه الوصمة ، من هذا الوشم ، من هذا الانماء الثوري . « عند التحقيق قال لسي احدثهم ، فقد انتهت المسألة وليست هناك مجال لبطولة بعد . وضحك في سري من كلمة بطونة هذه فهي الايون الذي فادني الى هذه المواقع والاحداث المفومة » . (٢٢) .

رضخ لكل طلبات المحقق ، ودون كل الاعرافات ، وابلغ عن كل شيء وسأله المحقق سؤالا ذا مغزى : « هل انهيت ؟! » فأوما بالاجاب « فالفرق لا يخاف الطعنات » . انظر كيف صور الروائي بدقة ومهاره نهاية طريق البطولة ومحاولة انخلاص بالثورة وبالسياسة ، كيف تضائل كريم الناصري وهو يدون اعترافاته رضوخا لاوامر المحقق : « وتناولت الورقة والقلم واركنت في زاوية من الفرفة ، اسندت ظهري الى الحائط مددت ساقي تماما كما كنت افعل عند كتابة واجباتي المدرسية ايام الدراسة الابتدائية، واخذت اخطط تارة واكتب تارة اخرى وكسرت رقابا جديدة وامعنت في كسر رقاب اخرى . ثم القيت بالورقة والقلم وزفرت بقوة » (٢٣) .

للك كانت مأساة البطل الثوري كريم الناصري . لقد تهرأ تماما وبخل عن فضيته السياسية وسلوكه السياسي . وفكر في طريق جديد للخلاص بالحب ، فلا شيء مهم ، وليس بالامكان احداث اي تغيير ، « ن اغير العالم ولن اجعل الشمس تطلع من الغرب » (٢٤) . « ان اهم ما يشغلني الان هو : هل بالامكان ان تكون المرأة تعويضا كالا عن الخيبة السياسية ؟ » (٢٥) تلك كانت فضيته التالية ، فتراه في الزمن الحاضر يهرب من ماضيه ، ينكر اسمه ، فحتى عندما عمل كريم محررا صحفيا اخذ يكتب باسم مستعار يغيره بين حين وآخر، لا يريد ان يظهر اسمه الملتخ الى التور » (٢٦) . « كيف نطبق اظهار وجوهنا الصفيقة للناس ! » (٢٧) ، « اني ادور في طرق لا يعرفني فيها احد ، واجلس في مفاه منزوية ، افرا صحفا قديمة واتابع برامج التلفزيون » (٢٨) وفي طريقه التالية للخلاص بالحب ، يعرف

- ٢٠) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
- ٢١) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
- ٢٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ .
- ٢٤) المصدر السابق ، ص ٦١ .
- ٢٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .
- ٢٦) المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٢٧) المصدر السابق ، ص ٧ .
- ٢٨) المصدر السابق ، ص ٨ .

(١٦) الربيعي ، عبدالرحمن مجيد ، الوشم ، نشر دار العودة بيروت ١٩٧٢ ، الطبعة الاولى ص ٨٩ .

(١٧) جاسم ، عزيز السيد ، شيء عن الوشم ، كلمة ختامية الحققت بالطبعة الاولى للرواية ص ٩٤ .

(١٨) الجزائري ، محمد ، الوشم رواية السقوط السياسي والاحباط .

(١٩) الوشم ، ص ١٦ و ١٧ .

اعتقد بأن الربيعي بوضعه هذا الختام الحزبي الزايق قد شوّه الكثير من صدق التصوير الذي اتبعه مع انموذج كريم الناصري، وهو انموذج صادق وحقيقي . حقا ان الثوري الحقيقي لا يكف عن الثورة، وهذا ما أرادته الربيعي بهذا الختام الايديولوجي لروايته « الوشم » مطلقا الامل الحقيقي على عودة التنظيم الثوري والانتماء الثوري. ولكن التطور الصحيح لشخصية كريم الناصري وفراده من كل شيء الماضي الثوري والحاضر اللامبالي ، من السياسة والحب ، الى الهرب والفرار ، هذا الطريق لا يقود الى مستقبل ثوري على النمط القديم، انظر كيف صور نجيب محفوظ مثلا تجربة « عمر الحمزاوي » بطل « الشحاذ » وانهاره وضياعه لتنام . واعتقد على خلاف ما ذهب اليه الزميل الناقد محمد الجزائري بأن الربيعي لم يدن هذا النموذج ولكنه ادان تجربة الثوري الحزبية ، ومن هنا اجد في الامل المطلقة على عودة الثوري الى الانتماء الحزبي ختاماً سياسياً مفروضاً فرضاً على الرواية لاهداف سياسية . وسنجد الحل لمسألة البطل الثوري في التطور الذي لحق بشخصية « صلاح كامل » بطل رواية الربيعي الثالثة « الانهار » الذي وجد في الابداع والخلق اسهاماً ثورياً حقيقياً وممكناً بدون شعارات او خطب كليشية .

بعد انموذج كريم الناصري البطل الثوري المنهار ، الذي صورته الروائي العراقي عبدالرحمن مجيد الربيعي بواقعية صادقة تمثلت في ضعفه الانساني بدون بطولية صاخبة في روايته الثانية القصيرة « الوشم » (٩٢ صفحة) ، تأتي روايته الثالثة الطويلة « الانهار » (٢٧١ صفحة) لتقدم تنويعات على نحن البطل الثوري ايضا ، اهم الشخصيات الروائية واكثرها ايجابية وفعالية وايحاء ، وهذه الرواية تمثل مرحلة ثورة ١٩٦٨ في العراق وتحتوي على رؤية قومية لنكسة ١٩٦٧ ايضا ، وذلك من خلال رؤى متعددة لشخصيات ثورية مختلفة مع بناء روائي حديث يستغنى عن تدخل الراوي المطلق على كل شيء واسلوب السرد والزمن الواحد والحكاية السلسلة التقليدية ، ويترك لشخصياته حرية الحركة وحرية التعبير عن آرائها ، منتقلا بسرعة بين الازمنة والامكنة والشخصيات ، ومستخدماً بمهارة اساليب الفلاش باك وتيار الوعي والمونولوج الداخلي والحوار الذي القصير ، حريصاً على الا يفلت زمام استمئاع القارئ من بين يديه بكلماته الشعرية ودفقة الرواية وسرعة نقلها بين الامكنة والازمنة والشخصيات النامية المتطورة والتنوع الكبير بينها في تشابك دقيق لم يختل لحظة واحدة ، بالرغم من غزارة الانطباعات وكثافة التعبير عن الواقع ووفرة الشخصيات الرئيسية والثانوية . فشخصيات رواية « الانهار » شخصيات حية ومتفاعلة مع الاحداث وايجابية ، وليس لمجرد تبادلها الكلمات والشعارات الثورية فقلما تفعل ذلك ، بل لانها تمارس صراعاً واقعياً اجتماعياً تعبر من خلاله عن قوى اجتماعية ومن ثم فانها تتصافر وتشارك في النضال السياسي، انها شخصيات تنظر الى المستقبل وتسمى الى تغيير الحاضر ، شخصيات شجاعة تواجه الفقر والارهاب وعنف السلطة دون ان تنهار بل تلمو على واقعها اليومي وتسمو لتكون لها نظرة فكرية للمجتمع والحياة والمستقبل تكون بمثابة الطاقة المحركة لها ، يفديها واقع يومي مصور بقلم روائي خبير بحياء ابطاله ومجتمعهم .

ان الشخصيات المنهارة في الرواية هي الشخصيات الثانوية التي آثرت الانزواء بعيداً عن التيار الفاعل في المجتمع الذي مثله

الى مجموعة من النساء والفتيات ، « مريم » زميلته ، امرأة منزوجة ولها عشيق وتريد ان تفسه الى فاتها ، و « يسرى » انموذج الفتاة الجميلة الطاهرة حاول ان يفسل بعلاقتها بها عاره القديم وعلاقته النسائية الاخرى الملوثة من « اسيل عمران » رفيقه الحزبية الثورية السابقة ، الى « مريم » انموذج الملوثة مثله ، « ترى هل اسطيع بها ان اتخذ موهبي من الخطأ الجديد ؟ ها هي امامي فتاة راتنه ، اصلبها غارية ، وحدودها بكر ، لماذا لا ابدا معها بداية جادة ؟ اغتسل منكم ، من اسيل عمران ، من مريم عبدالله ، من العالم ، من سخفي اليومي المنهري ؟ » (٢٩) جرب كريم الناصري الجنس مع موسى فاصيب بالفتيان ، ومع رافصة في ناد ليلى . وكون علاقته نظيفه مع فتاته النقية « يسرى » التي وجد فيها فرصه الاخيرة للخلاص من كل آثام الماضي وعار الحاضر . « بها وحدها اسطيع ان اسحق انكساري يا حسون ، وانمحو عاركم واسطورة مريم عبدالله ، وانظف اسيل عمران » (٣٠) . ولكن كيف يستطيع الموت المنهار المنهري ان يسرد روحه وان يجد خلاصه بالحب مع فتاته « يسرى » ؟ لقد ايقن بعدم جدوى الحب ايضا ، فريض « مريم » و« شهرزاد » ووقف علاقته النسائية ، اما حبيبته الحفيفة ومناخ امانه ففسد اشفق عليها من علاقته بها ان يلوتها او يحطمها ، فقال لها : « انت انسانة راتنه وعظيمة وبندر ما احبك اخاف عليك من هذا الحب ولا اريدك ان تربطي حياك بشريد مثلي مرمي على السواحل كالخشبة التي تذف بها الامواج من بقايا السفن الفارغة » . (٣١) وهكذا ففسل البطل الثوري كريم الناصري للمرة الثانية في الخلاص بالحب من ازمه ، كما فسل من قبل في طريق الخلاص بالثورة . وهذا يذكرنا بتجربة الثوري عمر الحمزاوي ، بطل رواية نجيب محفوظ « الشحاذ » ، الذي كف عن الثورة وحاول الخلاص بالحب ففشل فلجأ الى التصوف . اما كريم الناصري بطل رواية الربيعي « الوشم » فقد لجأ الى السفر ، « لا أعرف بالضبط الى اين ، فالسفر يهمني اكثر من المكان .. كلما تازمت الامور وتعقدت نهرب منها بحثاً عن بدايات جديدة » (٣٢) .

هل هذه هي نهاية مسيرة البطل الثوري في احدى مراحل الثورة العراقية كما صورها عبدالرحمن الربيعي في روايته القصيرة الثانية « الوشم » ؟ يرد الربيعي على تساؤلنا بان يحشو فم بطله الثوري السابق كريم الناصري بالامل في معاودة التنظيم تجميع صفوفه زمن ثم يرى في هذه العودة الثورية امله الحقيقي في الخلاص والابتعاد من جديد ، اذ يدور حوار بينه وبين « جابر » زميله الثوري الملتزم المنشبت بارضه وفكره وتنظيمه ، يسأل كريم زميله جابر عن خطواته المقبلة :

« اجاب جابر : سابقى هنا . ان حزبنا بعيد تجمعه من جديد ولن اتخلى عنه ابدا .

— كل الذي اتمناه يا جابر ان نعودوا ثانية وربما اعود بعودتكم، فانتم التفاؤل الذي اضعناه !

— تؤكد لك ان هذا سيكون قريباً » (٣٣) .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

هادي ياسين علي الرفض

- هل تسمح سيدتي
ان امسح عن جبهتها الحزن، وان اقرا في حضرتها
الشعر المكتوب على افخاذ الخيل ؟
هل تسمح ان ادخل في حجرتها – الليلة – محتميا
من عين العار واقضي الليل ؟
– هل انت المحكوم عليك بان ترعى الابل، وهل انت
المنوع عليك القول ؟
– يا سيدتي ، اما بعد
فقد خانني الاخوة واقتسموا الابل مع الذئب
– اوضح .
– يا سيدتي
ما زال الذئب الليلة تلو الاخرى
ياخذ من ابل القوم غنيمته ..
فاتفق الاخوة ان يقتسموا الابل مع الذئب ، فهل
تسمح سيدتي ان ..
– اكمل .
– يا سيدتي ، واقتسم الاخوة والذئب الابل .
– وبعد ؟
– فان الذئب اتى الليلة واقتسم النصف الثاني –
اي حصتنا –
ان الذئب ..
– فهمت ، فهمت .. واما القول ؟
– اما القول ، فاني قد جئت على اخر قطرة صبر
عندي
– اوضح .
– لم امتك القدرة ان اصمت يا سيدتي
فانكسر الكاس وقلت القول .
– وما قلت ؟
– قلت لهم : « يا جبناء سيأتي الذئب ويأكلكم ، اما
يفرغ من اكل الابل »
فاتتمروا .
واتفقوا ان اطرد .. هل تسمح سيدتي ان ادخل ؟
– تعال .. تعال ، فانت المنتظر ، الليلة عيدي
– سيدتي .. !؟
– تعال ، زمانا كنت نظرتك ،
اني ابحت عن يرفض ان يصمت ان ينكر ابله
ابحت عن يرجع للمقبض نصله
فجميل ان يلقي الشيء – الليلة – اصله
البصرة – السيبه

بوهي متصل ، يكشف عن الطاقات الايجابية الكامنة في الانسان .
هذه الشخصيات التي تجد في السياسة همها اليومي وشرط المواطنة
كما قالت احدها (صلاح كامل) – النموذج الثوري الواعي لمدوره
الواقعي دون طرف وهي شخصية ايجابية تتفاعل مع الحياة وتتفاعل
بالمستقبل وتعيش حياتها بواقعية – قال « صلاح كامل » لزميلته
« هدى عباس » ، النموذج الشخصية الضعيفة كما كشفتها الرواية
الريفي بجموعه من الشخصيات الثورية اليقظة المتأزرة في كفاح
من خلال سلوكها ، التي استنكرت اهتمامه بالسياسة : « السياسة
ظهور شخصي من اجل الوصول والحصول على بعض الامتيازات لدى
البعض وهذه الحالة داء . ولكنها هموم يومية عند اخرين نرفضها
شروط المواطنة وهذا ما يطلق منه » (٢٤) .

فهذه الشخصيات الثورية ضربت المثل بسلوكها واثارت من
خلال تطورها العني والموضوعي الى حقيقه هامة انبثا الرواية دون
كلمات مباشرة او خطابية زائفة . فلقد رأينا ان النماذج المتطرفة
والمعتزلة بعيدا عن ميدان الصراع السياسي والاجتماعي ، ظلت
بعيدة ، الى الابد عن معترك الحياة والابداع وتطوير المجتمع ، كتماذج
سعدون الصغار واسماعيل العمري وعبد الحميد الفلوجي ، الذين
اثروا ، رغم اختلاف الدوافع ، الفرار من ميدان الصراع اليومي ،
فظلوا جميعا بعيدين عن ارض الوطن يعانسون من حالات غريبة
روحية فظيعة ، او كالتهاية السواوية لهدى عباس . اما الشخصيات
الثورية الايجابية فقد ثبتت في الميدان الذي ظلت تكافح فيه وتمكنت
من احداث التغييرات المطلوبة وقدمت الابداعات والانجازات للوطن .
فكر الفنان الثوري صلاح كامل : « ما نمت ارسم بهذا العنوان ،
وهذا المشق فاني ادلك على حوضي الحار في زمن الثروة
والاحتراق » (٢٥) .

ان مثل هذه الشخصيات الروائية الايجابية التي تمثل قوى التقدم
الصاعدة هي التي تؤثر فينا حقا ، فيمثل هذه النماذج النصالية
نستطيع الرواية ان تدفع الناس الى الكفاح الثوري ، وتثبت بحق ان
الادب شاهد رئيسي على الواقع باعتباره ضمير الامة وواحدا من اهم
ادوات التعبير عن المجتمع . فلادب يرويته الصادقة للمجتمع وبمنازجه
وشخصياته الايجابية يسهم في دفع حركة التقدم في المجتمع .

(٢٤) الريفي ، عبد الرحمن مجيد ، الابهار ، نشر مكتبة الثورة
العربية بغداد ، الطبعة الاولى يوليو (تموز) ١٩٧٤ ، ص ٤٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

القاهرة